

مقدمة

لا فضل لى فى هذا الكتاب إلا أن رسمت خطته . ونظمت فصوله تبعاً لانفعالاتى الشخصية بتاريخى بلادى . وتركيز فكرى فترات طويلة فى أحقاب هذا التاريخ الذى عشت فى طفولتى نهاية حقبة منه . فقد ولدت ومصر إيالة عثمانية . أو ما كان يعرف فى الدجل السياسى باسم السيادة الاسمية لتركيا على مصر ، ونمعت وأنا حدث خطباء مساجد القاهرة يدعون للسلطان محمد رشاد . ولعبت الجميز فى المدرسة الابتدائية على نداءات لغة لا أعرفها . قيل إنها التركية . ثم شهدت تغير الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة الواحدة ، إلى ذات الأهلة الثلاثة بنجومها ، فالعلم الأخضر المثلث النجوم فى هلال واحد ، فراية الجمهورية العربية المتحدة ذات الألوان الثلاثة والنجمين الأخضرين .. كما شاهدت جنود الاحتلال يبدلون أرديتهم الحمراء الفاقعة ، باللباس الكاكي . وكانت أننى تتبين رائحة الجندى البريطانى على بعد خطوات ، ويقول أهلى بأننى فى طفولتى كنت أفزع لمرأى أولئك الحمر وجوهاً ولباساً .

أدركت من شئون بلادى ، وبعض أمور العالم ، ما يدركه غلام . عند إعلان الحرب العالمية الأولى . وعشت فى خضم ثورة ١٩١٩ طالباً ، وراقبت أعقابها بعقل شباب المدارس العليا ، حتى غادرت البلاد عام ١٩٢٥ لأتابع تعليمى ، وغبت عنها خمس سنوات . عشت أثناءها مع أهل الغرب بعقلية أوربية وقلب مصرى . وعودتى حياتى العلمية فى مصر والخارج أن لا أصدر حكماً قبل أن أتبين الأمور بكل ملاساتها . وعرفت أن الحقيقة فى مسائل الرأى بعيدة المنال . على العكس من بعض المسائل العلمية التى تقوم على قوانين الطبيعة ، كالبديهيّات الرياضية ، أو المؤسسة على الفحص المباشر وتسجيل الملاحظات . أقول بعض المسائل العلمية . لأنه حتى العلم لا يقف عند حدود الوصف التشريحي ، والتسجيل الموضوعى . وإنما يتقدم بخطوات يعمل الاستقراء فيها عملاً كبيراً . فتجرى على العلم أحكام سرمدية ، لأن العقل يخطئ كما يصيب .

واجتزت الحرب العالمية الثانية في وعى كامل لأهدافها القريبة والبعيدة ، على الرغم من أكاذيب المتحاربين ، وصراع المذاهب السياسية التي عرفتها فيما بين الحربين . فقد درجت أيام التحصيل بأوروبا على أن أطلع في صحف المساء رأياً ينقض ما طالعت في صحف الصباح ، فلا أميل يمنة أو يسرة . ودربت نفسي على فهم موضوعي لا بأس به لأهل اليمين وأهل اليسار ، بفضل تلك المتابعة اليومية لصراع الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا . وقد أعدني ذلك ، بعد عودتي إلى بلادي ، للحياة فوق المعترك السياسي ، لا في غماره ، لا سيما وأن دوري في الكفاح كان ميدانه العلم وتطبيقاته .

أومن بوطني ، وشعب بلادي ، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة ، ومن التعليم ، من الرفاهية الجثمانية والعقلية . لذلك كانت من أسعد اللحظات التاريخية التي عرفتها في حياتي ، لحظة أبلغت تليفونيا من القاهرة ، وأنا في الإسكندرية ، خبر قيام الضباط الأحرار بثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ ، وأحسست فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً ، صحيحاً لا كاذباً ، قد طلع في أفق التاريخ المصري . وربما كان ذلك الفجر هو الذي أنار لي طريقى إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن في الإمكان كتابته قبل قيام هذه الثورة .

والحق أنى منذ زمان طويل أطمع في وضع كتاب على هامش التاريخ ، أصور فيه الحياة المصرية منذ نشأتها . صورة صادقة لما اختلجت به نفسي منذ تيقظ في الشعور والإدراك ، سواء أمام النيل ، وفوق واديه الخصب ، أو في عرض البحر مقبلاً من البحر الأحمر ، بعد رحلة طويلة بالمحيط الهندي ، عابراً قناة السويس إلى بحرنا الأبيض ، أو جوّاباً على سطح بحيرات الدلتا الواسعة ، أو متقللاً بين بحيرة قارون ومديرية الفيوم ، أو مخترقاً الصحراء إلى الواحات النائية ، أو مختلياً بآثار أجدادي في المتاحف هنا ، وفي الخارج ، أو مرتاداً أطلال بلادى القائمة فيما بين الشلال والدلتا : أطلال العصر القديم ، والحقبة اليونانية الرومانية ، وآثار العهد القبطي ، والعصور الإسلامية .

أحسست في هذه التجارب بالوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة ، في السراء والبأساء ، الوحدة القوية المتماسكة التي جعلتني أشعر بأننى

ابن أعرق الشعوب طرّاً . تلمست تلك الوحدة فعرقتها في حقيقتها الإنسانية : عرقتها في المصرى فرداً وشعباً ، مهما تعدد حكامه ، وتداولته الإحن والأرزاء .

كتابي صور من ملحمة هذا الشعب الذى أفخر بأبنى واحد من آحاده . لست مؤرخاً . لا بالفكر ولا بالمهنة ، وإن كنت غير مجرد تماماً من الإحساس بالتاريخ . اعتمدت في كتابته على اللهجات الروحية التى أشرت إليها ، وعلى ما طالعت من كتب الأولين والآخرين في تاريخ بلادى ، وعلى القليل الذى عشته من ذلك التاريخ بلحمى ودمى وتفكيرى .

كتبته في مجبوحة الأدب والفن : حرية في الفكر ، وتحري في الأسلوب ، وتصرف في نقل النصوص المصرية القديمة التى التزم العلماء في ترجمتها التزامات لم أر أن أقيد نفسى بها ، بعد أن لمست المفارقات في ترجمة النص الواحد ، ما دمت محتفظاً بالروح والمعنى اللذين تبيينهما خلال اختلاف المترجمين .

وفي صفحات غير قليلة ، استعرت نصوص المؤرخين المصريين في القرون الوسطى ، وفي القرنين الماضيين ، وبخاصة نصوص ابن إياس فيما يتصل بالغزو العثماني ، ونصوص الجبرقي فيما يتعلق بالمماليك ، والفرنسيين ، ومحمد علي ، منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل التاسع عشر . ولم تخرج بعض الفصول الأولى من الكتاب عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً درامياً ، مع إحداث تعديلات طفيفة جداً في نصوص تلك الحوليات العظيمة .

ليس من قبيل افتعال التواضع إذن أن أقول في أول مقدمتي بأن لا فضل لي في وضع هذا الكتاب ، ولتزع في شيء من السخرية بأنفسنا أن دورنا فيه كان أشبه بدور المخرج السينمائي الذى لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يبينه ، ولا يعمل على أجهزة الإضاءة ، ولا يمثل ولا يصور . إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من إمكانات ، ليجمع ذلك في صورة تتجلى في ذهنه أولاً . وقد ينجح في تنفيذ الصورة الذهنية ، وقد يخيب .

وهذا هو حظى نفسه في كتابي : أن أكون وفقت ، أو أكون قد أخفقت في إخراج الصور الذهنية الوجدانية التى طبعها في نفسى تاريخ مصر كله ،

كوحدة متكاملة ، أو كما قلت في ثنايا الكتاب ، كرواية كبيرة ذات فصول بطلها الشعب المصري ، لا كمجموعة قصص منفصلة لكاتب واحد ، أو لكتاب عديدين .

كتابي أدب محض ، أحاسب عليه في حدود الأدب والفن . إلا أن واجبي نحو حقائق التاريخ اقتضاني أن أذيله بمجمل لتاريخ مصر ، أرجو أن يلقي عليه القارئ نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب . على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع ، كما أن واجبي نحو الأمانة في النقل . وإرجاع الفضل لذويه - مع تجنب الهوامش - فرض على أن أضع ثبناً بالكتب التي طالعتها إعداداً للكتاب .

ولقد قدرت أن حرية التأليف الأدبي لا تازمني بمطالعة « كل » ما كتب في تاريخ مصر ، ولو كنت مؤرخاً لكان من أوليات واجبي أن أدرسها عن بكرة أبيها ؛ ولعل القارئ غير المختص لا يتصور ما وراء هذه الدراسة من جهد قد يستنفد العمر كله . فالبيدوغرافيا الكاملة لتاريخ مصر وحضاراتها . في اللغات الحية والميتة ، قد يضيق بها مجلد في حجم هذا الكتاب . والمؤرخ يعرف حدوده ، فهو ممنوع بحكم الدقة العلمية من أن يحاول مثل هذه المحاولة .

أما الأديب - وقد يقتنع القارئ بحجته أو لا يقتنع ، مادمت أتحمّل وحدى وزر عملي - فقد انتفع انتفاعاً كاملاً بحرية الفن والأدب . وكل ما أرجوه أن لا أكون أسأت كثيراً إلى الحرية التي بمنحها الفكر المطلق .

الإسكندرية من ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ إلى ٣٠ نوفمبر ١٩٥٥

القاهرة من ٨ يناير ١٩٥٩ إلى ١٠ يولية ١٩٥٩

الإسكندرية من ١١ يولية ١٩٥٩ إلى ١١ سبتمبر ١٩٥٩

القاهرة من ١٢ سبتمبر ١٩٥٩ إلى ٤ أكتوبر ١٩٥٩

ملحوظة : خالفت بعض ما انتهى إليه العرف من تسمية آلهة المصريين حور ، أو حوريس ، وأوزير ، وتحوت ، وحانخور ؛ ومن تسمية أسرة اللاجيديين - وصحبها اللاجوسيين ، أبناء لاجوس - البطالمة ، وفضلت العودة إلى الأسماء الأكثر ذيوياً ، مثل : هوروس ، وأوزيريس ، وتوت ، وهاتور ، لأنني إذا قلت أوزير تحم أن أقول « إيز » . كما أني لا أستطيع أن أقول حور ، وبعض بلادنا ما تزال

تحمل اسم الإله الصقر : سنهور ، سندهور ، دمنهور ؛ ولا أقول تحوت وحاتور ، وأشهرنا القبطية تحتوي على اسميهما في شهرى « توت » و « هاتور » .

وجمع بطليموس على بطالمة ، صحيح لغة ، ولكن مؤرخى مصر ، وعلى رأسهم شيخهم العظيم تقي الدين المقرئى ، درجوا على صيغة الجمع « بطالمة » ، فأخذت بهذا الجمع حفاظاً على القديم .

وفى استعارتى أسلوبى ابن إياس والشيخ عبد الرحمن الجبرئى لم أحاول تصحيحاً لغوياً ، كأن أقول « تفرج بالأهرام » بدل « تفرج على الأهرام » ، لا لمجرد المحافظة على أسلوب ذاهب : بل لأن تطور اللغة يلزمنا هنا بتغيير حرف الجر . فكلمة تفرج من فرج وفرج ، تعنى كشف الهى ، وتنصرف إلى الترويح عن النفس ولكنها تحولت فى الاستعمال إلى معنى « الفرجة » - الكلمة العامية . لأن الكلمة العربية معناها : كل منفرج بين شيئين ! - وبذلك أضاف استعمالها فى هذا المعنى شيئاً جديداً ، غير كشف الغمة ، وهو : الرؤية والمشاهدة . وهنا نضطر إلى القول « تفرج على » ، لأن تفرج ب تنصرف إلى شىء آخر ، كأن تنفرج بسيجارة ، وتنفرج بلحن موسيقى ، وتنفرج بعشرة طاولة .

وأما تحولى إلى العامية فى بعض الألفاظ ، وبعض التراكيب ، فهو مذهب لى قديم ، وضعته موضع الامتحان فى أول كتاب لى ، نشرته سنة ١٩٣٧ ، وهو « سندباد عصرى » وزادتنى الأيام تمسكاً به ، فهو لا يبدو اليوم ناشراً كما كان يبدو منذ عشرين عاماً ، لأن الجيل الحى من كتاب اليوم أخذ به ، بل وأبدع فيه .